ملاحظات حول سياسة عبدالملك بن مروان في اختيار عمّاله

الدكتور عبدالامير دكسن
كلية الآداب قسم التاريخ

تتوافر في مصادرنا العربية الاسلامية ، التاريخية منها والادبية ، معلومات وافية عن الولاة والقضاة وكبار الموظفين الذين يعملون في بلاط الخلفاء كالحجاب والكتاب واصحاب الشرط ومن انيطت بهم مهمة الاشراف على الدواوين وغيرهم . وترد هذه المعلومات اما بشكل ابواب خاصة افردت لهذا الغرض ، او بشل قوائم ملحقة تذكر في نهاية عهد كل خليفة من الخلفاء . وهذا بلا شك يعكس الى حد كبير اهتمام مؤرخينا بالنواحي الادارية اهتمامهم بالجوانب السياسية لتاريخنا العربي الاسلامي .

الا انه من المهم هنا الاشارة الى ان هذه المعلومات ، رغم وفرتها وما تنطوي عليه من اهمية في دراسة النواحي الادارية ، فهي في كثير من الاحوال ناقصة احيانا ، ومتناقضة في احيان اخرى . اضافة الى ورود اسم احد الموظفين البارزين مضطربا بين عهد خليفة وآخر ، او ورود بعض الاسماء بصيغ مختلفة من مصدر الى آخر . ولكن ذلك لا يقلل من اهميتها بصورة عامة لدراسة أية فترة من فترات التاريخ الاسلامي ، الا انه يجعل مهمة الباحث صعبة وشائكة في الوقت نفسه .

ان الهدف من هذه المقالة الموجزة ليس تزويد القارىء بقائمة تحوى اسماء الولاة والموظفين الاداريين الذين استخدمهم عبد الملك بن مروان خلال مدة خلافته التي استغرقت واحدا وعشرين عاما

(٦٥ - ٨٦هـ/٦٨٤ - ٧٠٥)[١] بل القاء بعض الضوء على الكيفية التي كان ينتقي بها عبدالملك موظفيه وكيف كانت طبيعة العلاقة بين الطرفين ، وأخيراً كيف ان ظروف واحداث تلك الفترة التاريخية كانت قد ساهمت في رسم السياسة التي سار عليها هذا الخليفة في هذا المضمار .

لقد كان الخليفة عبدالملك بن مروان في اختياره لعماله متبعا الطريقة التي كانت سائدة في زمانه . فقد حبذ اقرباءه من افراد البيت الاموي بالدرجة الاولى ، واستعملهم في المناصب المختلفة ففي مصر وافريقيا نصّب اخاه عبدالعزيز بن مروان[٢] . اما اخوه محمد بن مروان فكانت له الجزيرة وارمينية ، وهما مركز عمل مهم بسبب ما تفرضانه من مواجهة الحرب مع الروم[٣] . وكان ابنه سعيد بن عبدالملك على الموصل[٤] ، وكان على فلسطين أخ آخر للخليفة هو ابان بن مروان الذي اعقبه سليمان بن الخليفة عبد الملك[٥] . اما حمص فكانت لابن آخر للخليفة هو عبدالله بن عبدالملك الذي استمر في ولايتها حتى وفاة عمه عبدالعزيز حيث نقله ابوه الى مصر[٦] . وفي الاردن كان أخ آخر للخليفة هو ابو عثمان ابن مروان[٧] . كما انه عهد بالبصرة والكوفة بعد ذلك الى بشر بن مروان احد اخوته أيضا[٨] . وكان يدير البصرة قبله أحد الامويين وهو خالد بن عبدالله بن خالد بن اسيد[٩] وكانت خراسان لامية بن عبدالله بن خالد بن اسيد[١٠] ، قبل ضمها الى ولاية الحجاج اما سجستان وكرمان فقد وليها كل من عبدالله بن امية بن عبدالله بن خالد بن اسيد ومحمد بن موسى بن طلحة الذي كانت اخته تحت عبدالملك بن مروان[١١] . وكانت مكة قد تناوب على ولايتها الحارث بن هشام بن اسماعيل المخزومي وعبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن اسيد[١٢] أما المدينة فقد وليها كل من يحيى بن ابي العاص عم عبدالملك بن مروان ، وابان بن عثمان بن عفان وعبدالواحد بن الحارث بن الحكم[١٣] واخيرا فقد كانت اليمامة لابراهيم

بن عربى وهو من كنانة قريش[١٤] وهكذا فان جميع هؤلاء امويون او من قريش كما فى حالة ابراهيم بن عربى ويبدو ان اعتماد عبدالملك بن مروان على افراد عائلته بالدرجة الاولى وتوزيعه الوظائف عليهم انما كان مرده ثقته بهم اكثر من غيرهم ، بسبب طبيعة المشاكل التى واجهها عند اعتلائه الخلافة ، او بسبب كونهم قرشيين مما يجعلهم قادرين على ان يحتلوا مركزا محايدا فى الصراع القبلى الذى كان سائدا آنذاك . فقد كتب اهل خراسان – مثلا – الى عبدالملك بن مروان . « ان خراسان لاتصلح بعد الفتنة الا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه .. »[١٥] والراجح ان مكانة قريش بين العرب قبل الاسلام وازدياد تلك المكانة بالاسلام ، باعتبار ان الرسول احد افرادها ، كما ان نزول القرآن كان بلغتها ، كل ذلك ساعدها على احتلال ذلك المركز الذى كان يصعب على اى من القبائل الاخرى .

ومع ذلك فان عبدالملك بن مروان لم يكن أسير افراد عائلته هؤلاء . اذ كان يراقبهم مراقبة دقيقة وعلى استعداد تام ان يعزل أيا منهم اذا ما اظهر عجزا او عدم كفاءة ، او انه لم ينفذ اوامره ، وان يحل محله شخصا آخرا اكثر قابلية ومرونة فى تنفيذ سياسته دون النظر الى كونه امويا ام غير اموى . من ذلك انه عزل خالد بن عبدالله بن خالد بن اسيد بسبب فشله فى مواجهة خطر الخوارج من جهة كما عزل اخاه أمية بن عبدالله بن خالد بن اسيد بسبب فشله فى انهاء الصراع القبلى الذى كان قائما فى خراسان ، والذى كان السبب الاساسى لتعيينه هناك ، وعدم نجاحه فى اشغال اهل خراسان فى الجهاد ضد الترك . فاضاف ولاية خراسان الى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى الذى عين المهلب بن ابي صفرة نائبا عنه هناك[١٦] ومن جهة اخرى فان وفاة بشر بن مروان (٧٤هـ/٦٩٣م) كان قد ترك ولاية العراق المهمة شاغرة . فبالاضافة الى الشعور المعادى للامويين

(وبخاصة فى الكوفة) فان العراق كان مهددا بصورة مستمرة من قبل الخوارج • يضاف الى هذا طبيعة القبائل العربية المشاغبة وغير المعتادة على الطاعة ، على عكس ما كانت عليه حال عرب بلاد الشام الذين كانوا متأثرين بالحضارة اليونانية الآرامية والدولة الرومانية التى خضعوا لها • لذلك فقد كانت ولاية العراق اكثر الولايات مسؤولية واهمية فى جميع الامبراطورية الاسلامية وهناك ناحية اخرى ايضا وهى ان القسوة التي استطاع بها الحجاج بن يوسف الثقفي ان يقضى بواسطتها على الحركة الزبيرية فى الحجاز ويعيد الامن والاستقرار الى ذلك القطر ومعاملته القائمة على التمييز بين الناس هناك على اساس ولائهم للخليفة ، جعلت عبدالملك يرى فيه خير من يناسب ظروف العراق فنقله من الحجاز الى ذلك القطر المضطرب ، دون النظر الى كونه امويا ام غير أموى[١٧] •

وهناك صفة اخرى مميزة لسياسة عبدالملك بن مروان فى اختياره لعمالة وولاته ، وهى انه استخدم ولاته على الاقاليم ، فى الاغلب ، من قبائل عرب الشمال (مضر) ، بينما اختار موظفى بلاطه ، الى حد كبير من قبائل عرب الجنوب (اليمن) • فمن بين ست وخمسين موظفا استعملهم عبدالملك ولاة طيلة مدة خلافته كان خمسة منهم فقط من عرب الجنوب • ومن جهة اخرى فان خمسة عشر موظفا من مجموع عشرين من موظفى بلاطه ، توفرت لنا اسماؤهم ، كانوا من قبائل الجنوب (اليمن) • ويبدو ان هذه السياسة كانت احدى الوسائل التى رأى فيها عبدالملك بن مروان حفظ التوازن بين الطرفين المتنافسين • وقد يظهر ذلك اكثر وضوحا اذا ما تذكرنا ان خلافته كغيره من خلفاء بنى امية شهدت صراعا قبليا عنيفا • ففى سوريا ومنطقة الجزيرة ثارت نار العصبية القبلية بين قبائل قيس وكلب اولا ، ثم بين قبائل قيس وتغلب بعد ذلك • كما ان خراسان كانت مسرحا آخر للصراع القبلى الذى بدأ بين قبائل ربيعة (بكر) وقبائل مضر (تميم

وقيس) • ثم انقسم المضريون على انفسهم فقام صراع بين تميم وقيس • ولكن الصراع بين المضريين لم يقف عند هذا الحد • بل ان تميما انقسمت على نفسها حيث قام الصراع بين بنى مقاعس بن عمرو والبطون من جهة وبنى عوف بن كعب والابناء من جهة اخرى (١٨) وهكذا فمن المحتمل ان تكون سياسة التوازن هذه التى اتبعها الملك فى اختيار عماله وولاته قد ساهمت فى التخفيف من حدة العصبية القبلية التى اخذت بالاختفاء فى أواخر خلافته حيث ان السنوات الاخيرة من حكمه كانت خالية من اى صراع قبلى مسلح • على ان من جاء بعده من خلفاء كان اقل حذرا فى اجتياز هذا الممر الخطر • لذلك فقد عاد الصراع القبلي المدمر الى الانفجار من جديد بشكل عنيف وكان سببا من اسباب تدهور الحكم الاموى وزواله •

---

(١) لمن اراد ذلك فليراجع مقالة الدكتور صالح أحمد العلي ، «موظفوا بلاد الشام فى العهد الاموى » ، مجلة الابحاث / ١٩ ، القسم الاول ، ص٤٤ ـ ٧٩ ، بيروت ١٩٦٦ •

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخ / ١ ، ص ٣٩٢ ـ ٣ ، رسائل الجاحظ ، ص١٥٩ (تحقيق السندوبي) ، البلاذرى ، انساب الاشراف /٥ ، ص٤٥ ، اليعقوبى ، تاريخ / ٢ ، ص٣٢٤ ، الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص٢٩ ، الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٤٨ ـ ٤٩ •

(٣) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص١٥٥ ، البلاذرى ، انساب الاشراف/٥ ص١٦٨ ، فتوح البلدان ، ص٣٢٢ ، اليعقوبى ، مشاكلة الناس لزمانهم ص١٨ ، ابن اعثم الكوفى ، كتاب الفتوح / ٢ ، ورقة ٥٩ب ، ابن الاثير ، الكامل / ٤ ، ص٢٩٤ ، غرر السير (مجهول المؤلف) ورقة ١ •

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٣٢ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان / ٢ ، ص٦٦٩ •

(٥) خليفة بن خياط ، تاريخ /١ ، ص٣٩٤ ، ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص١٥٥ ، البلاذرى ، انساب الاشراف /٥ ، ص١٦ •

(٦) البلاذرى ، انساب الاشراف / ١١ ، ص ١٨٩ ، اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص١٨ ، الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص٥٨ ، ٣٢٥ ٠

(٧) خليفة بن خياط ، تاريخ/١ ، ص٣٩٤ ٠

(٨) خليفة بن خياط ، تاريخ/١ ، ص٣٨٥ ، البلاذرى ، انساب الاشراف / ٥ ، ص١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٣٥١ ، ص٥، ٣٢ ، ٣٥٤ ، الطبرى/١ ، ص٨١٦ ، /٢ ، ص٨٥٣ ، ٨٦٢ ، ابن الاثير ، الكامل / ٤ ، ص٢٧٠ ، ٢٩٥ ٠

(٩) مؤرج السدوسي ، حذف من نسب قريش ، ص٣٦ ، مصعب الزبيرى نسب قريش ، ص١٩٠ ، البلاذرى ، انساب الاشراف/٥ ، ص١٧١ ، الطبرى / ٢ ، ص٨١٨ ، ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح / ٢ ، ورقة ٥٨ أ ٠

(١٠) خليفة بن خياط ، تاريخ/١ ، ٣٨٥ ، ابن حبيب ، اسماء المغتالين من الاشراف ، ص١٧٦ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٤١٦ ، اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ص٨١ ، الطبرى / ٢ ، ص٨٦١ ـ ٦٢ ، ٨٧٣ ، ٩٤٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٩ ، ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح /٢ ورقة ٥٨أ ـ ٥٩ب ، ٧٢أ ـ ٧٢ب ٠

(١١) خليفة بن خياط ، تاريخ /١ ، ص٣٨٦ ، اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ص٦٠ ، ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ورقة ٢٩أ ، الطبرى / ٢ ، ص٩٢٨ ٠

(١٢) الازرقى ، اخبار مكة / ٢ ، ص١٣٦ ٠

(١٣) مؤرج السدوسي ، حذف من نسب قريش ، ص٧١ ، ابن سعد ، الطبقات / ٥ ، ص٤١ ، مصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص٨٢ ، ٣٢٨ ، ابن حبيب المنمق ، ص٥٠١ ـ ٥٠٢ ، البلاذرى ، انساب الاشراف / ٥ ص١٢٠ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، /١١ ، ص٣٥٥ ، الطبرى / ٢ ، ص ٨٦٣ ، ٨٧٣ ، ٩٤٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٦ ، ١٠٦٣ ، ١٠٨٥ ، ١١٢٧ ٠

(١٤) خليفة بن خياط ، تاريخ / ١ ، ص٣٩٣ ، البلاذرى ، انساب الاشراف /٥ ، ص٧٩ ، /١١ ، ص١٨٩ ، ابن الكلبي جمهرة النسب ، ورقة ٣أ ، البكرى ، معجم ما استعجم / ١ ، ص ٥٥ ٠

(١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٤١٦ ، الطبرى/٢ ، ص ٨٦٠ـ٨٦١

(١٦) البلاذرى ، أنساب اشراف/١١ ، ص ١٩٤ـ١٩٥ ، ٢٦٦ـ٢٦٧ ٣١٠ـ٣١١ ، فتوح البلدان ، ص ٣٩٩ ، الطبرى/٢ ، ص ١٠٢٨ ـ

١٠٢٩ ، ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح/٢ ، ورقة ٥٩ أ ، ٥٩ ب ، ٧٢ أ – ٧٢ب ، ١٠٠ أ – ١٠٠ب غرر السير (مجهول المؤلف) ورقة ٦ – ٧ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد/٤ ، ص ٢٣ – ٢٤ ،

Miles, Two unpublished Dirhams of Abdallah b. Umayya, P. 156, ANSM, XIV, 1968.

(١٧)الجاحظ ، المحاسن والاضداد ، ص ٦٣ – ٦٤ ، الزبير بن بكار ، أخبار الموفقيات فى السير ، ورقة ٤٦ ، الامامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة)/٢ ، ص ٢٥ ، اليعقوبي ، تاريخ/٢ ، ص ، ٣٢٦ – ٣٢٧ ، الطبرى/٢ ، ص ٨٦٣ – ٨٧٣ ، ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح/٢ ، ورقة ١٦٩أ ، المسعودى ، مروج الذهب/٥ ، ص ٢٩٠ – ٣٠٢ ، ابن الاثير ، الكامل/٤ ، ص ٣٠٣ – ٣٠٥ .

(18) Dixon, A. A., The Umayyad Calihate, 65-86/ 684-705, A Palitical Study, PP. 104 - 112, London, 1971.